الوعي الفلسفي في معاثره
استقراء نقدي من الحقبة اليونانيّة إلى ما بعد الحداثة

غيضان السيد علي
أستاذ الفلسفة الحديثة . جامعة بني سويف . مصر

ملخص إجمالي:

بذل الفلاسفةُ جهودًا كبيرة لتحديد مفهوم الوعي ـ ذلك المفهوم الذي يُمَكِّن الإنسان من إدراك الأشياء من حوله، كما يُمَكِنّه من إدراك ذاته والغوص في أعماقها ـ والوقوف على أهمّيَّته، فوجدوا فيه خاصِيَّة من خصائص العقل البشريِّ، يرتبط بوجوده وجودُ الفكر واللُّغة؛ فإذا انتفى فلا وجود لفكرٍ ولا لغة. وعليه، تصبح مقاربة الوَعْي فلسفيًّا محاولة لمقاربة الحقيقة التي بحث عنها فلاسفة الغرب على مدار التاريخ؛ فكان في الفلسفة الأولى هو العلم بالخالق المبدئ، ونالت بذلك المرتبة الأعلى والأشرف بين العلوم والمعارف.

لكنَّ الأمر اختلف في العصور التالية، فلم يُقرِّب الوعيُ الغربيين المُحدَثين من الإله الذي جعلته الفلسفة الأولى محور اهتمامها، بل على العكس، فقد أبعدهم تمامًا عن معرفته؛ نظرًا لاعتلال الضمير واختلال التفكير، ممَّا جعلهم يسيرون في الاتِّجاه المضادِّ، حتى ذهب ماركس إلى أنَّ الإله مِن صُنع البشر وتخيُّلاتهم، في حين أعلن نيتشه أنَّه قد مات!

من هنا نرى كيف أنَّ الإنسان الحديث تاه في الطريق لاعتماده على العقل وحده الذي خلَّصه من ظلال الأسطورة وتبعاتها في العصور الغابرة، لكنَّه ما لبث أن ألقى به في العماء Chaos حتى لقد بدا له الأمر لغزًا لا سبيل إلى الوقوف على كُنهِهِ وحقيقتهِ، فنعته باللُّغز الأخير المتبقّي.

* * *

مفردات مفتاحيَّة: ضلال الوعي، الفلسفة الأولى، الأسطورة، اللُّغز الأخير، الحداثة، مابعد الحداثة.

علم المبدأ
العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

تمهيد:

مفردة الوَعْي حمَّالة اوجه في دلالاتها ومعانيها المتعدِّدة، فهي التي تتغيَّر بتغيُّر المجال الذي تَرِدُ فيه. والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك وعيًا على خلاف الكائنات الأخرى، فيمكِّنُه إدراك الأشياء من حوله، وإدراك ذاته والغوص في أعماقها. كما يرتبط وجوده بوجود الفكر واللُّغة. من هنا يمكننا وصف الوَعْي بأنَّه الإطار الذي نضع داخله كلَّ نتائج التجارب والعلوم والمعارف التي توصَّلت إليها البشريَّة عبر تاريخها، حيث يشير في مفهومه العام إلى الإحاطة بحقائق الأشياء من حولنا وحفظها واستيعابها والتعامل معها، أو تدبُّرها للوقوف على حقيقتها وسبر أغوارها.

مسعانا في هذا البحث الوقوف عند «مفهوم الوعي» في تاريخ الفلسفة منذ نشأتها الأولى، كما بدت قبل أرسطو (483 ق.م- 223 ق.م) وعنده، وصولاً إلى فلسفة الحداثة وزمن ما بعد الحداثة.

أوَّلًا- معنى الوعي في دلالاته وحقوله

أ- في اللُّغة، هو لفظة تشير إلى مدلولات شتَّى منها الحِفظ والفَهم والقبول وسلامة الإدْراك؛ فهو حِفْظ القلب الشيء وفَهمه وقبوله. وفلان أَوعى من فلان أي أَحفظ وأَفهم. وفي الحديث: «نَضَّر الله امرأً سمع مَقالتي فوعَاها، فرُبَّ مُبلغٍ أَوعَى من سامعٍ». والوَعِيُّ الحافظ الكَيِّس الفقيه. وفي حديث أَبي أُمامة: «لا يُعذِّب الله قلبًا وَعَى القرآن»؛ وقال ابن الأثير: أي عَقَله إيمانًا به وعملاً، فأَمَّا من حَفِظَ ألفاظَه وضَيَّعَ حدوده فإنّه غير وَاعٍ له[1]. ومعناه أيضًا أَنْ تحفظ الشيء في نفسك، والإيعاء أَنْ تحفظه في غيرك، والوعَايةُ أَبلغ من الحفظ لأنّها تختص بالباطن، والحفظ يستعمل في حفظ الظاهر[2]. ووَعَى الأمرَ أي أَدركه على حقيقته، والوَعْي هو الحفظ والتقدير والفهم وسلامة الإدراك[3].

ب- في الاصطلاح، يتنوَّع معنى الوعي ويختلف حَسب كلّ عِلمٍ يَرِد فيه:

ج - في **علم النفس،** هو جَمَاعُ العمليَّات العقليَّة التي تشترك في فهم الإنسان للعَالم ولنفسه، ويرتبط بنشاط الإنسان وبتطور اللغة[4]. أو هو معرفة الإنسان عواطفه ومشاعره وميوله المختلفة، ويقف على حقيقة دوافعه التي تحدِّد سلوكه وتشكِّل توجُّهاته.

د- في **علم الاجتماع،** يشير إلى مجموع الأفكار والنظريَّات والآراء والمشاعر الاجتماعيَّة والعادات والتقاليد التي توجد لدى الناس، والتي تعكس واقعهم الموضوعيّ. وبما أنَّ الوجود

[1]- ابن منظور، لسان العرب، المجلَّد الخامس عشر، تحقيق جملة من المحقّقين، بيروت، دار صادر، د.ت، ص 396.
[2]- عبدالمنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، 2000، ص 946.
[3]- المعجم الوجيز، مجمع اللُّغة العربيَّة، القاهرة، طبعة خاصَّة بوزارة التربية والتعليم، 2005، ص675.
[4]- المرجع نفسه.

الاجتماعيَّ للناس يتَّصف بالتعقيد والتنوُّع، فإنَّ الوعى الاجتماعيَّ يتَّصف أيضًا بالتعقيد والتنوُّع[1]. كما يشير مفهوم الوعي حسب تعريف «قاموس علم الاجتماع» إلى أنَّه : «اتجاهٌ عقليٌّ انعكاسيٌّ يُمَكِّن الفرد من الوعي بذاته وبالبيئة المحيطة به بدرجات متفاوتة من الوضوح والتعقيد، ويتضمَّن ذلك وعي الفرد بالوظائف العقليَّة والجسميَّة، ووعيه بالأشياء وبالعالم الخارجي، وإدراكه لذاته فرديًّا وكعضوٍ في جماعة»[2].

في هذا السياق، يؤكِّد تشارلز كولي T. Cooley أنَّ «الوعي الاجتماعيَّ أو الوعي بالمجتمع لا يمكن فصله عن **الوعي الذاتيِّ** self-consciousness، حيث إنَّ هذا الأخير يشير إلى الطريقة التي نفكر ونشعر بها، ونتصرف بناءً عليها، بالإضافة إلى كيفية تفسير الأشياء لأنفسنا وفهم العالم من حولنا. ويعلل «كولي» ارتباط الوَعْي الاجتماعيِّ بالوَعْي الذاتيِّ؛ لأنَّنا بالكاد لا نستطيع التفكير في أنفسنا إلَّا بالإحالة إلى جماعة اجتماعيَّة من نوع ما، ولا إلى الجماعة من دون الإشارة إلى أنفسنا. فالأمران يسيران معًا جنبًا إلى جنب، وما نحن على وعي به حقًّا ليس أكثر أو أقلَّ من الكلِّ الشخصيِّ أو الاجتماعيِّ المعقَّد، الذي يتمُّ تأكيده الآن على وجه الخصوص أو بصفة عامَّة. وعليه، فإنَّ معظم وعينا الانعكاسيِّ لحالات عقلنا الواعي، تصبح بالتالي وعيًا اجتماعيًّا، لأنَّ إحساسنا بعلاقتنا بالآخرين، أو بعلاقات الآخرين بعضهم ببعض، بالكاد أن تفشل في أن تكون جزءًا منها. فالذات والمجتمع توأمان، ونحن نعرف أحدهما في نفس اللَّحظة التي نعرف فيها الآخر[3].

هـ - **الوَعْي الدينيُّ**، يشير غالبًا إلى الشعور الدينيِّ الفطريِّ في الإنسان، وهو- في الأصل - وجدانٌ دينيٌّ، وإدراكٌ بقوَّة باطنة يسوق ذوي العقول إلى الإيمان بقوَّة عليا مدبِّرة وخالقة للكون، ويدفعهم للسعي نحو الخير. وبالوَعْي الدينيِّ نتحصَّل على إدراكات النفس التي تكون بها المَحبَّة لله، ولعبادته وطاعة أوامره، والأخذ بالقِيَم المطلقة، والعمل بمقتضاها[4]. إذ يهتمُّ الوعيُ الدينيُّ في صورته العامَّة- كما في الدين الإسلاميِّ- بضرورة الإجابة على الأسئلة التي تدور حول: أصل الخِلْقة الإنسانيَّة، وبيان الأطوار التي يمرُّ بها خلق الإنسان، وبيان الغاية من الوجود الإنسانيِّ(عبادة الله وعمارة الأرض)، والوعي بحدود الطاقة البشريَّة ومحدوديَّة قدراتها.

و - **الوَعْي المعرفيَّ**، يشير إلى الوقوف على كُنه العمليَّات العقليَّة التي يقوم بها الإنسان؛ كالتفكير والانتباه والإدراك والتذكُّر والتخيُّل وغيرها من عمليَّات معرفيَّة. ويبدو ذلك الوَعْيُ مقتصرًا على الإنسان العاقل الناضج من دون غيره، فلا يقف الأطفال الصغار على كُنْه عمليَّاتهم العقليَّة

---

[1]- سمير نعيم أحمد، النظريَّة في علم الاجتماع، القاهرة، الطبعة العاشرة، 2006، ص189-190.

[2]- محمد علي محمد وآخرون، قاموس علم الاجتماع، الإسكندريَّة، دار المعرفة الجامعيَّة، 1988، ص88.

[3]- فرغلي هارون، حول مفهوم الوعي الاجتماعي، تمَّ الاطِّلاع عليه في 2021/12/6، مقال منشور على الرابط الإلكتروني التالي:
https://www.anfasse.org/20105866-/21-31-18-05-12-2010/59-33-01-27-12-social-consciousness

[4]- عبدالمنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 947.

التي يقومون بها؛ لأنَّ ذلك يحتاج إلى مزيد من التجريدات والتصوُّرات التي لا تقوى عليها قدرات وإمكانات الطفل المحدودة.

ز - **الوَعْي من الناحية الفيزيائية العضويّة**، يشير إلى قدرة الدِماغ على القيام بعمليَّاته العضويَّة والعصبيَّة والإدراكيَّة، وإدارة أجهزة الجسم وتوجيهها، وأداء العمليَّات المختلفة من سمع وبصر، وقدرة على الكلام، وضبط الحركة، والتخطيط المستقبليّ. ويقابله فقدان الوَعْي الذي قد يكون بسبب حادث خارجيٍّ، أو اعتلال وظيفيٍّ داخليٍّ، أو كآليَّة دفاعيَّة في المواقف التي يفشل المرء في تعبئة إمكانيَّاته لمواجهتها، فيلجأ إلى إلغاء الموقف بغمر الأنا(الضمير أو النفس) بكلِّ الطاقة المختزنة حتى يحدث إغماء أو فقدان الوَعْي كما يحدث في مواجهة الصدمات النفسيَّة[1].

بناءً على هذه التعريفات، يمكننا تصنيف الوَعْي حسب المجالات المعرفيَّة التي صنعها تطوُّر العقل. ومن هذه المجالات ما هو مرتبط بالسلوك: كالوَعْي السياسيِّ، والوَعْي الأخلاقيِّ، والوَعْي الفنيِّ، والوَعْي الدينيّ. ومنها ما هو مرتبط بالمعرفة النظريَّة كالوَعْي الثقافيِّ، والوَعْي العلميِّ، والوَعْي الفلسفيّ.

ثانيًا- دلالات مفهوم الوَعْي عبر تاريخ الفلسفة:

من تعريف مفهوم الوَعْي بوجهٍ عامٍّ، والتعرُّض لنماذج من مدلولاته الاصطلاحيَّة، ننتقل إلى تعريف مفهوم **الوَعْي عبر تاريخ الفلسفة** بوصفه محورًا لهذه الدراسة. فقد استُخدم في التفكير الفلسفيِّ ليس للدلالة على وعيٍ بالذات فحسب، بل أيضًا على الذات الواعية نفسها في مقابل الموضوع الذي تكون الذات على وعي به؛ إذ إنَّ الوَعْي الفلسفيَّ يُعدُّ وَعيًا مميّزاً حيث إنَّه بدأ مع أول محاولة قام بها الإنسان العاقل لمعرفة ذاته وكينونته، فأخذ يطرح السؤال تلو السؤال، من قبيل: من أين جاء؟ وإلى أين يذهب؟ ولماذا وُجِد؟ وما الغاية من وجوده؟ كيف يتخلَّص من آلامه؟ كيف يعيش سعيدًا؟ مَنْ أوجده؟ وماذا يريد منه؟...إلى آخر هذه الأسئلة الوجوديَّة التي أرَّقت الإنسان منذ أن بدأ يعي ذاته ويفكِّر في كينونته.

ولذلك، يمكن تعريف هذا النوع من الوَعْي بأنَّه فهم الشخص للأفكار ووجهات النظر، والمفاهيم التي تقصد رفاهيَّة الإنسان وتجعل مصلحته فوق كلِّ اعتبار. وهذا الفَهم غير مرتبط بأيِّ تعصُّب منهجيٍّ، أو تعصُّب قوميٍّ، أو عنصريٍّ، أو دينيٍّ متطرِّف، ولا بأيِّ شكل من أشكال التعصُّب الطبقيِّ القصير النظر. كما لا يرتبط هذا الوَعْي بالأهداف والمصالح المادِّيَّة العابرة، بل يكون هذا النوع عبارة عن شعور إنسانيٍّ يسيطر على صاحبه وعلى أفعاله بكاملها، وهو ما يدفع الشخص إلى

[1]- د. أ. م . س. ولكنسون، أساسيَّات طبِّ الأعصاب، ترجمة لطفي عبدالعزيز الشربيني- هشام صالح الحناوي، مركز تعريب العلوم الصحيَّة، الطبعة الأولى، 2002، ص223-246.

تكوين حياة حرَّة وكريمة تليق به ككائن حيٍّ عظيم الشأن[1].

ويتوسَّل هذا الوَعْي في بلوغ مآربه الإنسانيَّة بالإدراك العقليِّ من خلال تواصل الفرد مع البيئة المحيطة به. ويكون ذلك من خلال حواسِّ الإنسان الخمس. ولحالة الإدراك هذه مستويات عدَّة منها: الإحساس بالذات، والإدراك الذاتيّ، والحالة الشعوريَّة، والحكمة أو العقلانيَّة، والإدراك الحسّيّ بين الفرد والبيئة، وبالتالي فإنَّ الوَعْي الفلسفيَّ هو مجموعة من الأفكار، والمعارف، وحصيلة التجارب التي شكَّلت لدى الفرد مفاهيمه عن كلِّ ما هو حوله[2]. أو هو :»جملة من التصوُّرات والأفكار المتنوِّعة التي تُحَصِّلها الذات بذاتها عن العالم الخارجيِّ، والذي يجعلها في اتِّصال دائم معه»[3].

نلفت هنا إلى أنَّ الوعي عند **أرسطو (384 ق.م – 322 ق.م)** كما بدا في «الفلسفة الأولى» هو «معرفة المبادئ والأسباب»[4]. ولذلك كان الإنسان الواعي عنده هو من يعرف مبادئ وأسباب كلِّ شيء بقدر الإمكان، رغم أنَّه من الممكن ألَّا يكون على وعي بفرادى هذه الأشياء على حدة. فأكثر العلوم دقَّة عنده هي تلك العلوم التي تدرس أكثر المبادئ الأولى، لأنَّه بسبب هذه المبادئ وعن طريقها تُعرف جميع الأشياء الأخرى. ولمَّا كان العلم الإلهيُّ هو من بين الأسباب أولها جميعاً، أو هو المبدأ الأول، فالعلم بالله أعلى من العلوم الأخرى كافَّة.

الأمر ذاته الذي يؤكد عليه فيلسوف العرب أبو **يوسف يعقوب الكندي (256-185هـ)** فيقول: «إنَّ أعلى الصناعات الإنسانية منزلة وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة، التي حدَّها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان؛ لأن غرض الفيلسوف في علمه إصابة الحقِّ، وفي عمله العمل بالحقّ»[5].

ثمَّ يستطرد قائلاً: «وأشرف الفلسفة وأعلاها مرتبة الفلسفة الأولى، أعني علم الحقِّ الأول الذي هو علَّة كلِّ حقّ، ولذلك يجب أن يكون الفيلسوف التامُّ الأشرف هو المرءَ المحيط بهذا العلم الأشرف، لأنَّ علم العلَّة أشرف من علم المعلول؛ ولأنَّنا إنَّما نعلم كلَّ واحد من المعلومات علمًا تامًّا إذا نحن أحطنا بعلم علَّته»[6].

---

[1]- خلود أبو حسين، مفهوم الوَعْي فلسفيًّا، تمَّ الاطِّلاع عليه في 2021/12/6 على الرابط الإلكتروني التالي:
https://mawdoo3.com

[2]- فيروز هماش، مفهوم الوعي واللَّاوعي في الفلسفة ، تمَّ الاطِّلاع عليه في 2021/12/6 على الرَّابط الإلكتروني التالي:
https://mawdoo3.com

[3]- مونيس بخضرة، تاريخ الوعي- مقاربات فلسفيَّة حول جدليَّة ارتقاء الوَعْي بالواقع، الجزائر، منشورات الاختلاف/ بيروت، الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، ط1، 2009، ص 17.

[4]- أرسطو، نصّ كتاب ميتافيزيقا أرسطو، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، القاهرة، دار نهضة مصر، ط3، 2009، ص297.

[5]- الكندي، كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، تحقيق محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة، دار الفكر العربي، ط2، 1950، ص 25.

[6]- الكندي، كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، ص30.

بعد ذلك، نالت الفلسفة الأولى شرفها العامَّ عند الكنديِّ، إذ هي محاولة للوعي بالله تعالى، ومن ثمَّ كان باقي الفلسفة منطويًا في علمها؛ وإذ هي أول بالشرف، وأول بالجنس، وأول بالترتيب من جهة الشيء الأيقن علمًا، وأول بالزمان، إذ هي علَّة الزمان[1]. وعلى ذلك، يكون الوعي في الفلسفة الأولى هو الوعي بالله تعالى، **فمن عرف ربَّه عرف نفسه** وعرف العالم من حوله.

في هذا الإطار، أعطى صوفيَّة الإسلام «المعرفة الإشراقيَّة» الأهمّيَّة الكبرى في تشكيل الوعي ووسيلتها القلب، وتسمَّى: العرفان، والبصيرة، والعلم اللَّدنيّ. كما منح الصوفيَّة «الخيال» مكانة كبيرة في تشكيل الوعي؛ فالخيال عندهم يساعد في الكشف عن نوعٍ مهمٍّ من المعارف والحقائق التي لا يصل إليها العقل الإنسانيُّ ولا الإدراك الحسّيّ.

وانطلاقًا من الوعي في الفلسفة الأولى عند أرسطو وتلامذته، سواء من المسلمين أم اللَّاتين، عرَّفه **ليبنتز** Leibniz (1646-1716م) بأنَّه «المعرفة التأمُّليَّة للحالة الباطنيَّة للموناد». كما عرّفه **لوك** Locke(1632-1704م) بأنَّه «إدراك الإنسان لما يحدث في عقله». وبينما ذهب **هيوم** Hume (1171-6771م) إلى أنَّ الوَعْي هو الشعور الداخليُّ، ميَّز **كانط** Kant (1724-1804م) بين الوَعْي التجريبيَّ (النفسيَّ) وبين الوَعْي المتعالي (الترنسندنتاليّ)، فالأول ينتسب إلى عالم الظواهر، ووحدته يمكن أن تتمَّ بحسب التركيب الذي يتمُّ بوساطة عيانات المكان والزمان وتصوُّرات الذِّهن. أمَّا الثاني فهو إمكان توحيد كلِّ وعي تجريبيٍّ وإمكان المعرفة. وهُوّيَّة الشخص ليست أمرًا تجريبيًّا بل هي أمر متعالٍ. أمَّا عند **فشته**Fichte و**هيغل** Hegel (1381-1771م) فنجد نقلة من فكرة الوَعْي الترنسندنتالي إلى فكرة الوَعْي الميتافيزيقي؛ فلقد جعل فشته من الوَعْي الأساس للتجربة الكلّيَّة، ويرى أنَّها هي «الأنا» الذي يصنع نفسه لنفسه.

يصف هيغل درجات أو أشكال الوَعْي في عمليَّة ديالكتيكيَّة في مجراها يكون تطوُّرُ الوَعْي هو تطوُّرَ الواقع. وفي كتابه «ظاهريَّات العقل» يُظهر لنا الوَعْي على أنَّه هو العلَّة الأولى، والوَعْي الذاتيَّ هو المرحلة الثانية، والعقل (أو الروح) من حيث هو حرٌّ وعينيٌّ هو المرحلة الثالثة. من جهته، يصوِّر **برنتانو**Brentano (1838-1917) الوَعْي على أنَّه «إحالة وقصديَّة»، لا حاويًا ومحويًّا. وهو عند برغسونBergson (1859-1941م) يعني التذكُّر الحاضر[2].

في المقابل، ذهب **وليم جيمس** W. Games (1842-1910م) إلى أنَّ الوَعْي الفلسفيَّ هو علاقة بين الذات والعالَم. وعرَّفه **برتراند راسل** B. Russell (1872-1970م) بأنَّه خاصّيَّة المخّ. وقال عنه **المادّيون** إنَّه انعكاس العالَم الموضوعيِّ والوجود الشخصيِّ، وأنَّه يستوعب التاريخ والمعرفة،

[1]- المصدر السابق، ص31.

[2]- خالد أبو الخير، سلسلة الوَعْي: مقاربات فلسفيَّة ونظرة تطوُّريَّة لأصل الوعي، بحث منشور تمَّ الإطِّلاع عليه في 2021/12/12 على الرابط الإلكتروني التالي: https://elmahatta.com

فيدرك الواقع بطريقة مُثلى، ويضع لنفسه أهدافًا، ويوجِّه نشاط الإنسان إليها، ومن ثمَّ فهو لا يعكس الواقع الموضوعيَّ فقط ، لكنَّه يخلقه أيضًا[1].

هكذا يشير مفهوم الوَعْي الفلسفيِّ إلى جملة التصوُّرات والمفاهيم التي يصوغها الفيلسوف ليعبِّر بها نظريًّا عن خلاصة إحاطته بالمعارف الخاصَّة بالوجود، والمعرفة، والأخلاق، والقيم، والدين. ومن ثمَّ يتميَّز عن سائر أنواع الوَعْي الأخرى بأنَّه لا يقنع بدرجة الفَهم التي تقنع صاحب الوَعْي العاديِّ الموجود عند عامَّة الناس الذي يكون على استعداد للاستقرار والاكتفاء إذا ما جمع من المعرفة ما يكفي لمواجهة الحياة العمليَّة للحياة اليوميَّة. والواقع أنَّ الوَعْي الفلسفيَّ لا يقنع بهدف متواضع كهذا، وإنَّما يهتمُّ بتحصيل المعرفة الشاملة، أو على الأقلِّ المعرفة التي تكون شاملة بالقدر الذي تتيحه الحياة البشريَّة القصيرة، والحدود التي لا يتعدَّاها الذهن البشريُّ، فهو ينطوي على نوع من الفهم الأصيل للكون والتجربة البشريَّة بأكملها.

في هذا المجال، يرى **حسن حنفي** أنَّ لفظ «الوَعْي» أفضل من لفظ «الشعور». الوَعْي حضاريٌّ، والشعور نفسيّ. الوَعْي وعيٌ بالذات أي أنَّه شعور مزدوج في حين أن الشعور وعي خالص. الشعور شعور بشيء خارج الشعور، في حين أنَّ الوَعْي وعي بالذات داخل الشعور. الوَعْي أقرب إلى الدلالة الحضاريَّة أي الشعور الواعي أو الوَعْي الحضاري[2].

انطلاقًا ممَّا تقدَّم، يمكننا القول بأنَّ **الوَعْي الفلسفيَّ هو نوع أرقى وأعلى مرتبة من أنواع الوَعْي الأخرى كافَّة**، إذ إنَّ أنواعه الأخرى تستهدف تلبية الحاجات العمليَّة، حيث إنَّ غريزة البقاء، أو المحافظة على الحياة، أو تلبية الحاجات المختلفة التي تتطلَّبها الحياة المعيشة هي التي تدفعنا إلى تحصيل المعرفة في أدوارها الأولى. من هنا يتبيَّن أنَّ الوَعْي الفلسفيَّ ينشد المعرفة في ذاتها ولذاتها، والباعث إليه هو اللَّذَّة العقليَّة، وغايته التي يهدف إليها هي كشف الحقيقة، من دون أن تدفع إليه أيَّة مطالب عمليَّة أو عقائد دينيَّة. وقد ظلَّ هذا هو حاله حتى جاءت العصور الحديثة والمعاصرة وأصبحت له غايات عمليَّة مقصودة لذاتها. وهذا ما سنعرفه من المبحث التالي الذي يروم الوقوف على مراحل تطوُّره.

ثالثًا- تاريخية تطوُّر الوَعْي الفلسفيِّ وأحقابه

مرَّ الوَعْي الفلسفيُّ بمراحل متعدِّدة لا يمكن أن نبدأها بتاريخ محدَّد؛ فإذا كان الكثير من الباحثين يعودون إلى العصر اليونانيِّ بوصفه أول عصور الوَعْي الفلسفيِّ، انقدحت به العبقريَّة اليونانيَّة على غير مثال سبق، فإنَّنا نغاير هذا الرأي قلبًا وقالبًا، ونرى أنَّ الوَعْي الفلسفيَّ بدأ مع

[1]- عبدالمنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 947.
[2]- حسن حنفي، مقدِّمة في علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنيَّة،1991، ص112.

الإنسان منذ أن وُجِد وبدأ يفكِّر في الأسئلة الوجوديَّة المختلفة الخاصَّة به في ذاته، وحينما حاول أن يفهم طبيعة الوجود من حوله بوصفه «أنا» عاقلة، وحيث أصبحت المعرفة هي ميله المفضَّل. والفَهم هو هدف حياته، والرَّغبة في الوصول إلى الحكمة هي غايته النهائيَّة. هذا الأمر يؤكِّده **غوسدورف** G. Gusdorf الذي يرى أنَّ الوَعْي الفلسفيَّ لم يكن في يوم من الأيام وقفًا على قوم من دون قوم، أو على شعب من دون شعب، فهو حقٌّ إنسانيٌّ لا علاقة له بخطوط الطول والعرض، ولا بمسائل الجنس والدين واللَّون[1].

1. الوَعْي الفلسفيُّ في الفكر الشرقيِّ القديم:

نقرُّ بأنَّ الوَعْي الفلسفيَّ نشأ عند قدماء الشرقيين، رغم إقرارنا بأنَّ بزوغ هذا الوَعْي كان مختلطًا بالأسطورة التي كانت المحاولة الأولى للفكر الإنسانيِّ في تفسير الطبيعة، خصوصًا بعد ضياع الهدي الإلهيِّ على أيدي بعضٍ من أبناء آدم الذين أصابهم الضلال بعد الهُدى. كانت هذه الأسطورة خليطًا من قصص الآلهة المتعدِّدة والدّيانات الشعبيَّة والأخلاق والروحانيَّات وأشكال التأمُّل الميتافيزيقيّ. وبتطوُّر الوَعْي أخذ الإنسان القديم ينتقل من الوَعْي الأسطوريِّ إلى الوَعْي الفلسفيِّ؛ حيث عجزت الأساطير أن تقدِّم إجابات شافية وكافية لأسئلة «الأنا العاقلة» التي حاولت أن تضع هذه الإجابات الأسطوريَّة في ميزان العقل. فهناك في بلاد الشرق القديم (مصر- الصين - الهند - فارس - بلاد العراق والشام) ابتُدِع العلم الطبيعيُّ، وابتُكِرت الفلسفة، ومن هناك تفجَّرت الينابيع التي روت الأرض الأوروبيَّة فأنبتت فيها الفلاسفة اليونانيين ومن جاءوا بعدهم.

تنبغي الإشارة هنا إلى أنَّ البحوث التاريخيَّة الحديثة أظهرت أنَّ الكثير من تراث المصريين القدماء كان يحتوى على وعيٍ فلسفيٍّ بدا من خلال تفكيرهم المجرَّد في الألوهيَّة والأخلاق والنُّظم الاجتماعيَّة والخلود. فقد تطوَّر الوَعْي الدينيُّ في مصر القديمة من الوثنيَّة المحضة إلى الروحيَّة المغالية في التجريد، بل إلى اللَّاأدريَّة المطلقة[2]. وهذا يشير إلى أنَّ الفكر المصريَّ كان مهدًا للوعي الفلسفيّ، الأمر الذي تؤكِّده الأدلَّة الجغرافيَّة والاقتصاديَّة والتاريخيَّة والأثريَّة.

في المقابل، اصطبغ الوَعْي الإنسانيُّ في بلاد الصين القديمة بصبغةٍ فلسفيَّة واضحة من خلال معالجته لقضايا مهمَّة دارت حول: وجود الإله وطبيعته، وأصل الكون، والطبيعة الإنسانيَّة، والسياسة، ومقاييس الحكم الصالح، ومبادئ الأخلاق العمليَّة وأصولها النظريَّة، والنزعة الصوفيَّة الكامنة في بعض النفوس البشريَّة[3]. وقد قامت الديانة الصينيَّة في بداية الأمر على عبادة السماء

[1]- أنظر، زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ت، ص19.
[2]- أنظر، محمد غلاب، الفلسفة الشرقيَّة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريَّة،1938، ص25
[3]- محمد عبدالله الشرقاوي- أحمد جاد، محاضرات في الفلسفة العامَّة، القاهرة، مطبوعات قسم الفلسفة الإسلاميَّة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، المجموعة المتَّحدة للنشر، 1995 - 1996، ص72.

أو الإله الأعمّ، وهو ربُّ الأرباب وحاكم الحكام، ثمَّ انتكس الوعي فعبدوا أرواح الأجداد، ثمَّ عبدوا الأنهار والجبال. وكان الإنسان-عندهم- نتيجة تزاوج القوى السماويَّة بالقوى الأرضيَّة، وأنَّه عن طريق إصلاح الحاكم تنصلح الرعيَّة؛ فالحكَّام يؤثِّرون في الناس بأخلاقهم أكثر ممَّا يؤثِّرون بقوانينهم. وأنَّ القاعدة الأخلاقيَّة الأسمى ليست سوى توجيه أفعالنا الإنسانيَّة بما يتَّفق وطبيعة الإنسان العقليَّة الإلهيَّة. هذا الأمر نفسه هو الذي يمكِّننا من أن نعثر عليه في بلاد فارس مع الفكر الزرادشتيِّ، أو مع الفكر البوذيِّ في الهند، أو ما يمكن استنباطه من ملحمة جلجامش في بلاد الرافدين من وعي فلسفيٍّ راقٍ.

2. الوَعْي الفلسفيُّ في بلاد اليونان القديمة:

بدأ الوَعْي الفلسفيُّ في بلاد اليونان القديمة كحالة تمرُّد ورفض لما قرَّرته الأساطير الكثيرة التي امتلأت بها الإلياذة والأوديسة عن: الآلهة، ونشأة الكون، وطبيعة الحياة، ومصير النفس بعد الموت، والخير والشرّ، وغيرها من المسائل التي تؤرِّق «الأنا العاقلة» في كلِّ مكان وزمان؛ حيث تمَازَجَ في الأساطير اليونانيَّة القديمة الفعل البشريُّ مع الفعل الإلهيِّ، وتصارعت الآلهة كما يتصارع البشر. فقد كان آلهة اليونان- كما تروي الأساطير- يحبّون، ويكرهون، ويفرحون، ويحزنون، ويتزوجون، وينجبون أولادًا، ويقيمون علاقات مشروعة وغير مشروعة مع الآلهة والبشر[1]. ومن ظلال الأسطورة بدأ فلاسفة اليونان يبحثون عن أجوبة عقلانيَّة لهذه المسائل الوجوديَّة الجوهريَّة، فراحوا يفكِّرون على نحوٍ مخالف لما ترويه الأساطير، استخدموا فيه عقولهم وملكاتهم الفطريَّة، فانقسمت الفلسفة اليونانيَّة -حسب كثير من المؤرِّخين- إلى مرحلتين: الأولى هي الفلسفة قبل سقراط، وتضمَّنت المدارس الفلسفيَّة التالية: المدرسة الأيونيَّة الطبيعيَّة، والمدرسة الإيليَّة، والمدرسة الذريّة. وقد ذهبت المدرسة الأولى إلى تفسير نشأة الكون وظواهره الطبيعيَّة تفسيراً نظريًّا بعيدًا عن التفسير الأسطوريِّ، فرأى طاليس- أول الفلاسفة - أنَّ الماء هو أصل الأشياء جميعًا. بينما ذهب خَلَفَهُ أنكسيمندر إلى أنَّ اللَّامتناهي أو الأبيرون هو أصل الأشياء، فكان أول من وضع بذرة النشوء والتطوُّر، وأول من قال بوجود اللَّامتناهي أو المبهم وبالحركة الآتية إلى المادَّة من الخارج. أمَّا المدرسة الإيليَّة التي كان من أهمِّ أعلامها: أكسينوفان وبارمنيدس، فذهبت إلى القول بوحدة الوجود والثبات، وتصوَّرت الوجود تصوُّرًا روحيًّا، ووجَّهت النقد إلى تعدُّد الآلهة، وقدَّمت آراء قويَّة حول توحيد الإله وتنزيهه. في حين اتَّجهت المدرسة الذريَّة إلى معالجة المسألة نفسها فقالت بأنَّ أصل الأشياء كثرة حقيقيَّة، وأنَّه لا يوجد تحوُّل من مادَّة إلى أخرى، وإنَّما الأشياء تأليفات مختلفة

[1]- أنظر، هوميروس، الإلياذة، تعريب ونظم سليمان البستاني، ج1، القاهرة، الهيئة العامَّة لقصور الثقافة، 2015، ص240-241.

من أصول ثابتة، ويفترقون في تصوُّر هذه الأصول وطرق انضمامها وانفصالها[1]. ومن أهمِّ أعلام هذه المدرسة الفيلسوف أنبادوقليس.

المرحلة الثانية من تطوُّر الوَعْي الفلسفيِّ اليونانيِّ بدأت مع السوفسطائيين وانتهت بأرسطو وتلاميذه المباشرين، وتُعدُّ من أهمِّ مراحل الفلسفة اليونانيَّة وأكثرها خصوبة وثراء. حيث عبرَّ الوَعْي الفلسفيُّ فيها عن حركة تحرير وتنوير استهدفت تحرير الإنسان من **ضبابية وظلال الفكر الأسطوري**، فلم يعد محور التفكير الفلسفي المادَّة أو الطبيعة أو العالم الخارجيّ بل اتَّجه إلى الإنسان، إذ اهتمَّ بالعقل الإنسانيِّ على اعتبار أنَّه وسيلتنا إلى المعرفة، واهتمَّ بالعالم الداخليِّ للإنسان على أساس أنَّه مصدر الأخلاق. كذلك تتميَّز هذه المرحلة باعتبار السؤال الخاصِّ بإمكانيَّة العلم وحدوده جزءًا من الفلسفة. هذا بالإضافة إلى ظهور المذاهب الفلسفيَّة الضخمة التي تمثَّلت في فلسفة أفلاطون وأرسطو[2].

ولكن، رغم ذلك، لم يستمرّ هذا التطوُّر في الوَعْي الفلسفيِّ العقلانيِّ، بل أصيب بانتكاسة واضحة في العصر الهللينستيِّ مع مدارسه المختلفة (الكلبيَّة- الأبيقوريَّة - الرواقيَّة)؛ حيث افتقر هذا العصر إلى سداد التفكير واتِّزانه، واختفى الصفاء والهدوء الذي كان يميّز التفكير اليونانيَّ خصوصًا في عصره الذهبيِّ. فقد تميَّز العصر الهللينستيُّ بذاتيَّة التفكير، والافتقار إلى الأصالة والابتكار، وكانت غايته المنشودة البحث عن السعادة أو التخلُّص من الألم.

3. الوَعْي الفلسفيُّ في العصر الوسيط:

شهد العصر الوسيط، وخصوصًا في الشرق الإسلاميِّ، تطوُّرًا ملحوظًا في الوَعْي الفلسفيِّ على خلاف ما شهده في العصر نفسه في الغرب من انحسار وضمور نتيجة لسيطرة الكنيسة على الحياة الفكريَّة؛ حيث أصبحت الفلسفة نشاطًا لاهوتيًّا. ولكن، ليس صحيحًا ما يثار عن أنَّ الفلسفة الإسلاميَّة تقليد أو تفسير مشوَّه وخاطئ للفلسفة اليونانيَّة. فالواقع الذي أخذ يعترف به الكثيرون من الغربيين أنَّ الأوروبيين أنفسهم مدينون كثيراً في فهم أرسطو لشرَّاحه العرب كابن رشد وغيره. وبجوار ما أبدعه فلاسفة المسلمين العظام (الكندي- الفارابي- ابن سينا- ابن باجة- ابن طفيل - ابن رشد)، برز «علم الكلام» الذي يقول عنه المستشرق الفرنسيُّ إرنست رينان، إنَّه: «الحركة الفلسفيَّة الحقيقيَّة في الإسلام». كما برز «التصوُّف» الذي لم يأخذ كثيراً عن المشائيَّة، كما هناك «أصول الفقه» الذي نشأ إسلاميًّا خالصًا على يد الشافعي[3].

[1]- يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانيَّة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1946، ص35.
[2]- محمد عبدالله الشرقاوي- أحمد جاد، محاضرات في الفلسفة العامَّة، ص102.
[3]- المرجع السابق، ص 116.

يجدر بنا هنا أن ننوِّه بأنَّ الوَعْي الفلسفيَّ لم يخفت في العالم الإسلاميِّ بموت ابن رشد، أو أنَّه قد مال تمامًا إلى التقليد والجمود والعقم بعد سقوط بغداد، فهذا قول ينطوي على تجنٍّ كبير لا يصمد أمام النقد الجادّ؛ فقد جاء بعد ابن رشد المتوفَّى عام (1198م-595ه) مجموعة من ألمع العلماء والمفكِّرين والفلاسفة الذين عبَّروا عن تطوُّر الوَعْي الفلسفيِّ العربيِّ بعد موت ابن رشد بقرون من أمثال: أثير الدين الأبهري المتوفَّى عام 1264م، وابن النفيس (1288-1213م)، وابن القف الكركي(1286-1233م)، وابن الخطيب (1374-1313م)، وابن خلدون(1406-1332م)، وابن الأزرق(1491-1427م)، وصدر الدين الشيرازي(1640-1572م)... وغيرهم ممَّن يصعب حصرهم في هذا الإطار.

من المفيد القول أنَّ الوَعْيَ الفلسفيَّ الإسلاميَّ امتلك قدرة ذاتيَّة على تجديد نفسه ممَّا ضمن له الاستمراريَّة؛ نظرًا لما يملك من وحي سماويٍّ، وتراث عقليٍّ، وجهود فكريَّة وعمليَّة، أو ما يمكن تسميته بعلوم الغايات التي تضمُّ علومًا خمسة هي: علوم القرآن، وعلوم السنَّة، والفقه، والكلام، وأصول الفقه، بجانب علوم الأدوات كعلوم اللُّغة والتاريخ والاجتماع والنفس والفلسفة وغيرها. فقد انطلق من ركيزة أساسيَّة هي **معرفة الله على النحو الأتمِّ**، كما سبق القول عند الكنديِّ أول فلاسفة الإسلام، ومن معرفة الله على هذا النحو يقف الإنسان على الحقائق الوجوديَّة العظمى؛ ليؤصِّل الوعي الإسلاميَّ لغاية وجود الإنسان ومهمَّته ورسالته في هذه الحياة. بناءً على ذلك، كان من متطلِّبات الوعي في الإسلام الفهم العامُّ لأصول الدين وغاياته الكبرى ومقاصده العظمى، والبصيرة بوسائل الدعوة إلى الله وأساليبها زمانًا ومكانًا وواقعًا، والوعي بحقيقة التديُّن الصحيح الذي يقوم على إخلاص الوجهة لله تعالى في العبادة والقصد والتوسُّط والاعتدال، وتنبيه أبناء الأمَّة بضرورة الوعي السياسيِّ الذي يجعلها على أهبة الاستعداد للقوى الخارجيَّة التي تهدِّد كيان الأمَّة والعمل على مواجهتها، ولفت الأنظار إلى مقدَّسات الأمَّة من قرآن، وسنَّة، وأماكن مقدَّسة، لتظلَّ حاضرة باستمرار في وعي الأجيال تقوم مقام التقديس والاحترام والتقدير والحماية والرعاية.

4. الوَعْي الفلسفيُّ في العصر الحديث:

بدأ الوَعْي الفلسفيُّ في أوروبا يستعيد مساره بعيدًا عن عصور الظلام التي غرق فيها قرونًا طويلة، ويستأنف نشاطه الحضاريَّ الذي توقَّف مع اليونانيين القدماء، فازدهر بعد انتكاسه مع بداية القرن السابع عشر في الوقت الذي ذاعت فيه فلسفة فرنسيس بيكون (1626-1561م)، وتوماس هوبز(1588-1679م) في إنكلترا، ومع بداية فلسفة ديكارت(1650-1596م)، وسبينوزا (1632-1677م) في فرنسا. وقد تأسس الوَعْي الفلسفيُّ الحديث على الكوجيتو الديكارتيِّ القائل: «أنا أفكِّر إذن أنا موجود»؛ حيث كانت الكنيسة تسيطر على الوَعْي والتفكير، فلا مجال للخروج عى

ما ترتضيه، ولا مجال لترجمة الكتاب المقدَّس إلى اللُّغات المحليَّة، فهو حبيس اللُّغة اللَّاتينيَّة، ولذلك كانت الكنيسة وحدها هي التي تمتلك حقَّ التفسير الحصريِّ لما جاء فيه. كما كانت الأنظمة السياسيَّة لا تعرف سوى الحقِّ الإلهيِّ المقدَّس للملوك، فلا مجال لعقد اجتماعيٍّ أو غيره. وفي هذا المناخ، لم تكن الفرصة متاحة للأفراد أن يفكِّروا.

من هنا جاء الكوجيتو الديكارتيُّ منبِّهًا إلى ضرورة التفكير الذاتيِّ، فمن لا يفكِّر بذاته فهو غير موجود. وكانت هذه بمثابة ثورة فكريَّة للوعي الفلسفيِّ في العصر الحديث انتهت بتضاؤل سلطة الكنيسة، وضعف التديُّن العامِّ، والاتِّجاه القويِّ نحو المادّيَّة والعلمانيَّة، وزيادة الاهتمام بالعلم المادِّيِّ الذي أدَّى إلى نشوء العلوم الطبيعيَّة الحديثة كالفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء وغيرها من العلوم، والاهتمام بالمناهج، والاستخفاف بالحقِّ الإلهيِّ المقدَّس، والاهتمام بالإنسان.

هنا انعطف الوَعْيُ الفلسفيُّ انعطافًا كبيرًا، حيث تحوَّل عن المنهج التأمُّليِّ ومنطقه الذهنيِّ التجريديِّ الذي لا يأبه بالنتائج العمليَّة التطبيقيَّة، ولا يأبه إلَّا بالعلم من أجل العلم، والتأمُّل من أجل التأمُّل، إلى المنهج التجريبيِّ الاستقرائيِّ الذي فصَّله فرنسيس بيكون مهتمًّا بما يترتَّب عليه من نتائج وآثار عمليَّة تطبيقيَّة. وقد شهد هذا العصر بزوغ نجم ثلَّة من ألمع الفلاسفة الذين أثروا الوَعْي الفلسفيَّ، ومثَّلوا وجهات نظر واتِّجاهات فلسفيَّة مختلفة، نذكر منهم ممثّلي الفلسفة العقليَّة: ديكارت وسبينوزا وليبنتز. ثمَّ ممثِّلي الفلسفة الحسّيَّة: لوك وباركلي وهيوم. ثمَّ ممثِّلي فلاسفة عصر التنوير: فولتير وروسو وشوبنهاور وديدرو. ثمَّ فلاسفة المنفعة: بنتام ومل. ثمَّ بلغت الفلسفة الحديثة قمَّتها مع كانط وهيغل وفلاسفة اليسار الهيغلي(ماركس وفويرباخ وشترنر ونيتشه).

بيد أنَّ هذا الوعي لم يُقرّب الغربيين المحدثين من الإله الذي جعلته الفلسفة الأولى محور اهتمامها، بل على العكس، أبعدهم تمامًا عن معرفته نظرًا لاعتلال الضمير واختلال التفكير، ممَّا جعلهم يسيرون في الاتِّجاه المضادِّ، حتى ذهب ماركس إلى أنَّ الإله مِن صُنع البشر وتخيُّلاتهم، في حين أعلن نيتشه أنَّ الإله قد مات!

5. الوَعْي الفلسفيُّ في عصر ما بعد الحداثة:

بدأت الحقبة المعاصرة من الوَعْي الفلسفيِّ مع بزوغ القرن العشرين وما زالت مستمرَّة حتى يومنا الراهن؛ وتميَّزت بوعيٍ جَمَعَ بين العلم والفلسفة نتيجة تأثيرهما المباشر في حياة الإنسان المعاصر، حيث استقلَّت كثير من العلوم عن الفلسفة لعدم ملاءمة منهجها التأمُّليِّ لطبيعة هذه العلوم، واعتمادها المنهج التجريبيَّ الذي حوَّل به الإنسان النتائج العلميَّة إلى منجزات تكنولوجيَّة غيَّرت طبيعة الحياة البشريَّة، واستطاع به الإنسان المعاصر أن يُسخِّر الطبيعة لتحقيق بعض أهدافه

ورغباته. وسيطر العلم ونتائجه على الوَعْي العام فتحوَّلت مهمَّة الفلسفة إلى التركيز على دراسة المشكلات الأخلاقيَّة التي نشأت عن التطوُّر العلميِّ المعاصر، مثل الهندسة الوراثيَّة، ومصير البشريَّة، وتأثير تطوُّر التكنولوجيا على حياة الإنسان. بمعنى أنَّ المشكلات الأخلاقيَّة برزت على سطح الوَعْي الفلسفيِّ العام، وتحوَّلت الأخلاق إلى فلسفة أولى بدلاً من الميتافيزيقا.

يصعب تصنيف فلاسفة القرن العشرين في اتِّجاهات متمايزة -كما كان الأمر في الحقبة الحديثة- نظرًا لاشتراكهما جميعًا إمَّا في نقد المثاليَّة، أو نقد التجريبيَّة، أو نقدهما معًا من أجل الجمع بينهما مباشرة أو عن طريق التوسط بالحياة أو أحد عناصرها. ومع ذلك، يمكن تمييز اتِّجاهات سبعة رئيسيَّة في الفلسفة المعاصرة يضمُّ كلٌّ منها تيَّارات فرعيَّة:

الأول: نقد المثاليَّة، ويتَّضح ذلك عند البراغماتيَّة، والوضعيَّة المنطقيَّة، والواقعيَّة الجديدة.

الثاني: نقد التجريبيَّة في علم النفس الخالص، والكانطيَّة الجديدة.

الثالث: محاولة الجمع بين المثاليَّة والواقعية بلا توسُّط أو بتوسُّط فلسفة الحياة.

الرابع: الظاهريَّات وما ينشأ عن تطبيقها من فلسفات وجوديَّة.

الخامس: الشخصانيَّة والتوماويَّة الجديدة والأوغسطينيَّة الجديدة.

السادس: مدرسة فرانكفورت والفكر السياسيُّ الاجتماعيُّ.

السابع: الفلسفة التحليليَّة خصوصًا تحليل الُّلغة وبقايا الفكر الرياضيِّ المنطقيِّ والطبيعيِّ عند فلاسفة الرياضة والمنطق وفلاسفة العلوم في القرن العشرين[1].

ومع تطوُّر الوَعْي الفلسفيِّ مع موجات الحداثة وما بعد الحداثة وصل الوَعْي الفلسفيُّ إلى مرحلة إسقاط المرجعيَّات الميتافيزيقيَّة العقلانيَّة أو المعايير الدينيَّة، فأعلن عن «موت الإله» من أجل الإنسان، لكنَّه سرعان ما أعلن عن «موت الإنسان» مع نظريَّات «موت الناقد» و«موت المؤلِّف» من أجل البقاء على المعنى، ثمَّ ما لبثوا أن أماتوا المعنى وفقًا للنظريَّات الهيرمنيوطيقيَّة التي لا تقبل بمعنى نهائيٍّ معينَّ ولكن تؤمن بلا تناهي المعاني، فكلُّ المعاني ممكنة. ومن ثمَّ تصاعدت الشكوك، وانتفت الحقائق الموضوعيَّة، وعاد الوعي الغربيُّ في عالم ما بعد الحداثة إلى ما كان عليه الحال مع أجدادهم السفسطائيين من النسبيَّة والتغيُّر، فبات الوعي السائل الذي لا حدود له ولا تحديد هو السائد، حتى زعم زيجمونت باومان -أحد أشهر فلاسفة ما بعد الحداثة-: «أنَّ التغيُّر هو الثبات الوحيد، وأنَّ الَّلايقين هو اليقين الوحيد»[2]. أو بعبارة أخرى أكثر وضوحًا، هو

[1]- حسن حنفي، مقدِّمة في علم الاستغراب، ص438-439.

[2]- زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، بيروت، الشبكة العربيَّة العربيَّة للأبحاث والنشر، 2016، ص39.

حالة من الصيرورة التي يكتنفها التغيُّر والتبدُّل والتشكُّل بلا غاية تصلها ولا قاعدة تضبط تحوُّلاتها.

في الحقيقة، لقد تنبَّه الوَعْي الفلسفيُّ المعاصر إلى ذلك المأزق الذي وضع فيه الإنسان نفسه، فقد تراءى له مع التقدُّم التقنيِّ والتكنولوجيِّ أنَّه سيُخضع الطبيعة ويُسخِّرها كي يحقِّق الفردوس الأرضيَّ المنشود، لكن ما تحقَّق له على أرض الواقع هو العكس تمامًا، فعندما تَدَخَّلَ الإنسان في الطبيعة محاولاً إخضاعها له من أجل إرضاء احتياجاته الضروريَّة وغير الضروريَّة، وظنَّ أنَّه أصبح قادرًا عليها، وأنَّها أصبحت طوع يمينه وملكه، فاجأته الطبيعة بردِّها على عدوانه، وتنبَّأ كثير من علماء الإيكولوجيا بأنَّها سوف تحسم الصراع لصالحها، وسوف تسحق هذا الكائن المتطفِّل الذي عبث بنظامها وسبَّب خللاً به. الأمر ذاته عندما استخدم الإنسان التقنيَّة ضدَّ بني جنسه من البشر، فاخترع القنابل النوويَّة والهيدروجينيَّة والذرّيَّة التي فتكت بملايين البشر، بل مازالت تحمل التهديد المستمر في دمار الكوكب بكلِّ ما فيه وما عليه. كذلك كان سوء استخدام التقنيَّة في علوم الحياة البشريَّة هو ما أدَّى إلى انتهاك قدسيَّتها وإهدار كرامة الإنسان، لتتحوَّل وعود التقنيَّة الحديثة بتحقيق فردوس أرضيٍّ إلى كابوس مرعب.

خلاصة القول أنَّ التقنيَّة كانت أداة للشرّ غير المحدود سواء استُخدِمت مع الطبيعة، أم مع البشر الآخرين، أو في الحياة الإنسانيَّة نفسها. ولذلك ذهب ديفيد شالمرز (6691-؟) إلى أنَّ «خبراتنا الذاتيَّة» هي السمة المميّزة للإنسان ولمعظم الكائنات الحيَّة، وقد تجاهلها العلم الذي تجاهل «**النومين**» واهتمَّ بخصائص «**الفينومين**»، أو الخصائص الظاهرة للمادَّة أو للظاهرة موضوع البحث. ومن ثمَّ دعا إلى العودة للاهتمام بـ«الخبرات الذاتيَّة» بوصفها تحمل الوعي الحقيقيَّ للإنسان. ولذلك رأى أنَّه من الصعوبة بمكان أن يقف العلم المعاصر بأساليبه وأدواته المعروفة لنا اليوم على حقيقة الوعي؛ فمهما توصَّل إلى تفسيرات للمشكلات السهلة المتعلِّقة بالوعي فستظلُّ المشكلة الصعبة بعيدة عن إمكانيَّة التفسير، ويقصد بها كيف تؤدّي العمليَّات المخيَّة الفيزيوكيمائيَّة الماديّة إلى خبراتنا الذاتيَّة الواعية اللّامادِيَّة. وما قدَّمته فيزياء الكوانتم في هذا المجال لا قيمة له؛ إذ إنَّه مليء بالغموض، كما أنَّ السؤال المهمَّ سيظلُّ مطروحًا: لماذا يؤدّي انهيار الدالة/ الوظيفة الموجبة الكموميَّة إلى خبراتنا الذاتيَّة. لينتهي من ذلك إلى أنَّ الوعي مكوّن أساسٌ ابتدائيٌّ للوجود، كالزمان والمكان والشحنة والكتلة، فهو الذي يعطي لحياتنا معنى ويجعلها مفهومة وذات قيمة، ولا يمكن اختزاله إلى منظومات أبسط، وينبغي أن يبحث العلم عن القوانين التي تحكمه، وعن العلاقات بينه وبين العالم الفيزيائيّ[1]. أمَّا العالم الميتافيزيقيُّ فلا يستطيع أن يجزم بوجوده أو نفيه، لذلك من الصعب أن تكون هناك علاقة بينه وبين الوعي، وإنْ عبرَّ عن أنَّه سيكون رائعًا بالنسبة إليه لو بقي

[1]- سوزان بلاكمور، لغز الوعي: حوارات حول الوعي، ترجمة عمرو شريف، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2019، ص 52-53.

الوعي بعد الموت[1].

قريبًا من هذا المعنى، ذهب الفيلسوف الإنكليزيُّ دانيل دانيت Daniel Dennett (2491-...) الذي طالب الإنسان أن يتخلَّى عن كلِّ بديهيَّاته عن الوعي. فكلُّ ما نستشعره من خبرات ذاتيَّة هو توهُّمات تستشعرها ذواتنا المتوهَّمة[2]. حتى انتهى به القول إلى أنَّ الوعي في ذاته لغزٌ كبيرٌ، و«أنَّ ما يجعل فهم الوعي مهمَّة صعبة أنَّنا اكتسبنا بالتطوُّر قدرة محدودة على فهم النفس، وقدرة محدودة على النفاذ إلى ذواتنا المسئولة عن خبراتنا الذاتيَّة التي تشكِّل نظرتنا إلى العالم الذي ننتمي إليه، وهذا ما يجعل فهم الأمر صعبًا للغاية»[3]. وختم بأن لا شيء يبقى منَّا بعد الموت إلاَّ السيرة القائمة على أقوالنا وأفعالنا[4]. وهكذا تنتهي الدراسات في عالم «ما بعد الحداثة» إلى أنَّ فهم «الوعي» أمرٌ صعبٌ للغاية، فهو بمثابة لغز كبير من مبهمات وألغاز عالم «ما بعد الحداثة»، بل رأى البعض أنَّه اللُّغز الأخير المتبقّي.

خاتمة:

تخلص هذه الدراسة إلى عدد من النتائج المهمَّة، أبرزها:

أوَّلًا- إنَّ الوعي مفهومٌ يعبرِّ عن نشاط عقليٍّ يستدعي بذل مجهود من قِبل الإنسان، وأنَّ موضوعه ليس الذات ولا ما يحيط بها فحسب، بل إنَّ موضوعه كلاهما أيضًا، وهو ليس قاصرًا على الأمور الواضحة بذاتها، بل يتمحور سعيه الدؤوب حول الأمور الغامضة والمعقَّدة.

ثانيًا- إنَّ مقاربة الوَعْي فلسفيًّا هي محاولة لمقاربة الحقيقة التي بحث عنها الفلاسفة على مدار التاريخ؛ حيث ظهر الوَعْي كموضوعٍ فلسفيٍّ قديمٍ/ معاصرٍ اهتمَّت به الفلسفة على مدار تاريخها انطلاقًا من الفكر الشرقيِّ القديم الذي تضمَّن رؤى فلسفيَّة استفاد منها فلاسفة اليونان، وبنوا عليها فلسفاتهم الخاصَّة، مرورًا بفلاسفة العصور الوسطى، والفلسفة الحديثة والمعاصرة، وصولًا إلى اهتمامات فلسفة ما بعد الحداثة التي نعتته باللُّغز! وقد عادت بمفهوم الوعي إلى نقطة البداية، ممَّا عبرَّ عن وجود أزمة فعليَّة حول مفهوم الوعي في الفلسفة الغربيَّة.

ثالثًا- أظهرت هذه الدراسة أنَّ مفهوم الوَعْي من المفاهيم الغامضة المتعدِّدة المعاني والدلالات بحسب المجال والعلم الذي تردُ فيه، فلم يعد الوَعْي مفهومًا قاصرًا على الفلسفة والفلاسفة، بل أصبح مفهومًا مطروحًا على طاولة علماء النفس والأعصاب والإدراك وبعض الفيزيائيين.

---

[1]- المرجع السابق، ص 70.
[2]- المرجع السابق، ص 73.
[3]- المرجع نفسه.
[4]- المرجع السابق، ص 70.

رابعًا- إذا كانت هذه الدراسة قد عرضت لتاريخ البحث عن حقيقة الوَعْي الفلسفيِّ عند معظم الفلاسفة القدماء والمُحدَثين، فإنَّ من أبرز من اهتمَّ به في وقتنا الرَّاهن هو الفيلسوف الاسترالي ديفيد تشالمرز الذي عمل على تقديم «نظريَّة جديدة للوعي» أراد من خلالها أن يستكشف» مشكلة الوَعْي الصعبة» كما سمَّاها، أو مشكلة شرح التجربة الذاتيَّة، التي سعى من خلالها لتفكيك الحركة الجوَّانيَّة للوعي وتفاعلها مع الذات في علاقتها مع الطبيعة وزحف التكنولوجيا وانتهاكها للمقدس الإنساني، وكيف يفكِّر الإنسان؟ وهل ستسيطر الآلة على الإنسان؟ وبذلك يُعدُّ تشالمرز بمثابة حلقة الوصل بين الفلسفة القديمة والفلسفة المعاصرة في ما يتعلَّق بموضوع الوَعْي الفلسفيّ.

خامسًا- ما زالت فلسفة الوَعْي، حسب فلاسفة ما بعد الحداثة، تثير الكثير من أسئلة «الأنا العاقلة» حول مسائل وقضايا وجوديَّة قد تختلف عَرَضيًّا عن الأسئلة القديمة ولكنَّها تبقى في جوهرها هي الأسئلة الوجوديَّة ذاتها التي أرَّقت الفلاسفة على مدار التاريخ، ولكن بلغة وصبغة راهنة تواكب العصر الرَّاهن عصر التقدُّم العلميِّ والتكنولوجيّ.

سادسًا- أظهرت دراسة مفهوم الوعي في الفلسفة الغربيَّة منذ العصر اليونانيِّ وحتى فلاسفة ما بعد الحداثة اضطرابًا ظاهرًا انتهى بنعته باللُّغز مع تشالمرز ودانيت وغيرهما، وأنَّ هذا اللُّغز لم يتوصَّل أحد إلى حلِّه حتى اليوم. في حين أظهر المنهج الإسلاميُّ فهمًا حقيقيًّا لمفهوم الوعي تجلَّى في تأسيس المنهج الإسلاميِّ لمفهومه، ومجالاته، وآثاره الطيّبة على الفرد والمجتمع، ممَّا يجعل منه صمَّام أمان للأمَّة الإسلاميَّة في مواجهة الغزو الفكريِّ والثقافيِّ وكلِّ الدعوات الهدَّامة القادمة من الغرب. وهو الأمر الذي يحتاج بيانُهُ إلى دراسة مستقلَّة.

قائمة المصادر والمراجع:

أوَّلًا- المصادر والمراجع العربيَّة والمترجمة:

1. ابن منظور، لسان العرب، المجلَّد الخامس عشر، تحقيق جملة من المحقّقين، بيروت، دار صادر، د.ت.
2. أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي، كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، تحقيق محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة، دار الفكر العربي، ط2، 1950.
3. أرسطو، نص كتاب ميتافيزيقا أرسطو، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، القاهرة، دار نهضة مصر، ط3، 2009.

4. حسن حنفي، مقدِّمة في علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنّيَّة،1991.

5. د. أ. م . س. ولكنسون، أساسيَّات طب الأعصاب، ترجمة لطفي عبدالعزيز الشربيني- هشام صالح الحناوي، مركز تعريب العلوم الصحيَّة، الطبعة الأولى، 2002.

6. زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ت.

7. زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، بيروت، الشبكة العربيَّة للأبحاث والنشر، 2016.

8. سمير نعيم أحمد، النظريَّة في علم الاجتماع، القاهرة، الطبعة العاشرة، 2006.

9. سوزان بلاكمور، لغز الوعي: حوارات حول الوعي، ترجمة عمرو شريف، القاهرة ، المركز القومي للترجمة، 2019.

10. عبدالمنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، 2000.

11. مجمع اللُّغة العربيَّة، المعجم الوجيز، القاهرة، طبعة خاصَّة بوزارة التربية والتعليم، 2005.

12. محمد غلاب، الفلسفة الشرقيَّة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريَّة،1938.

13. محمد عبدالله الشرقاوي- أحمد جاد، محاضرات في الفلسفة العامَّة، القاهرة، مطبوعات قسم الفلسفة الإسلاميَّة كليَّة دار العلوم جامعة القاهرة، المجموعة المتَّحدة للنشر، 1995 -1996.

14. مونيس بخضرة، تاريخ الوَعْي- مقاربات فلسفيَّة حول جدليَّة ارتقاء الوعي بالواقع، الجزائر، منشورات الاختلاف/ بيروت، الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، ط1، 2009.

15. محمد علي محمد وآخرون، قاموس علم الاجتماع، الإسكندريَّة، دار المعرفة الجامعيَّة، 1988.

16. هوميروس، الإلياذة، تعريب ونظم سليمان البستاني، ج1، القاهرة، الهيئة العامَّة لقصور الثقافة، 2015.

17. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانيَّة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1946.

ثانيًا : المراجع الإلكترونيَّة:

1. خالد أبو الخير، سلسلة الوَعْي: مقاربات فلسفيَّة ونظرة تطوُّريَّة لأصل الوَعْي، بحث منشور تمَّ الاطِّلاع عليه في 1202/21/21 على الرَّابط الإلكترونيِّ التالي:

https://elmahatta.com/%D8%B3%D9%84%D8%B3%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B9%D9%8A

2. خلود أبو حسين، مفهوم الوَعْي فلسفيًّا، تمَّ الاطلاع عليه في 1202/21/6 على الرَّابط الإلكترونيِّ التالي:

https://mawdoo3.com/%D985%%D981%%D987%%D988%%D985%_%D8%A7%D984%%D988%%D8%B9%D98%A_%D981%%D984%%D8%B3%D981%%D98%A%D8%A7%D98%B

3. فرغلي هارون، حول مفهوم الوَعْي الاجتماعيِّ، تمَّ الاطِّلاع عليه في 1202/21/6، مقال منشور على الرَّابط الإلكترونيِّ التالي:

https://www.anfasse.org/2010-31-18-05-12-2010/59-33-01-27-12-5866-/21social-consciousness

4. فيروز هماش، مفهوم الوَعْي واللَّاوعي في الفلسفة، تمَّ الاطِّلاع عليه في 1202/21/6 على الرَّابط الإلكترونيِّ التالي:

https://mawdoo3.com/%D985%%D981%%D987%%D988%%D985%_%D8%A7%D984%%D988%%D8%B9%D98%A_%D988%%D8%A7%D984%%D98%4%D8%A7%D988%%D8%B9%D98%A_%D981%%D98%A_%D8%A7%D9%84%D981%%D984%%D8%B3%D981%%D8%A9